

تفسير سورة القلم

الجزء الثالث

للشيخ هاني حلمي حفظه الله

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم



الحمد لله وكفى، وصلَّى الله وسلم وبارك على النبي المصطفى، وآله المستكملين الشرف، ثمَّ أما بعد ...

فأسأل الله تبارك وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علماً ينفعنا، اللهم يا ولي الإسلام وأهلهِ مسّكِنا بالإسلام حتى نلقاك عليهِ، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك على حلمك بعد علمك

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

كنا قد فرغنا من الكلام حول قصة أصحاب الجنة في اللقاء الماضي ضمن تفسير سورة القلم، ووقفنا عند قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ(41)} [القلم]

• شرح المقطع الأول

بطبيعة الحال لمّا تكلّمنا عن قصة أصحاب الجنة، وقلنا إن من كان يفعل الإحسان ويُوَسّع في العطاء ثم يقبض يده، فإن الله يقبض فيضه عنه كما قبض هو إحسانه عن العباد، فكنا أخذنا من ذلك درساً تربويا في غآية الأهمية، ما دام العبد يوسع فإن الله يوسع عليه، فإذا قبض يده قبض الله عنه رزقه، كان هذا هو الدرس المستفاد من قصة أصحاب الجنة، ثم إن ربنا تبارك وتعالى لمّا ذكر ما أعدّ للمكذبين والطاغين، من النكّال، والعذاب في الدنيا والآخرة، أعقبه بذكر ما أعد لأهل التقوى من الجنات في الآخرة، وهذا على طريقة القرءان، في الجمع بين الوعد والوعيد، حتى يسير العبد إلى ربه بين الخوفِ والرجاء، لذلك قال الله جل وعلا:{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ } [القلم/34]

جزاء المتقـيـــــــــن

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ} المتقون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله عز وجل، أهل التقوى الذين هم على طاعة من الله، على نور من الله، يرجون ثواب الله، الذين يجتنبون معاصي الله، على نور من الله يخافون عقاب الله، فلذلك ناسب أن يقول {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ}، ولم يقل إن

للمؤمنين، لأن أهل التقوى هم من يجمعون بين الخوف والرجاء، وهذا مناسب لسياق الآيات ولذلك قال: { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ } [القلم/34]لاحظوا {عِندَ رَبِّهِمْ} أي في الآخرة، {جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ} أي إن للمتقين حال كونهم عند ربهم جنات النعيم، ومعنى عند ربهم أي في وعد ربهم لهم، وفي ضمان الله لهم، {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ} على الله عز وجل تفضلاً منه ووعداً منه سبحانه وتعالى وضمانًا، أن يرزقهم جنات النعيم.

{جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ}الجنات جمع جنة، وهي الدار التى أعدها الله لعباده المتقين التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، {جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ} كلمة النعيم هي اسم لكل ما يتنعم به ،كل ما يخطر ببالك، ففي الجنة أكثر من ذلك، وقال الله جل وعلا {جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ} وأضيفت الجنات إلى النعيم لأنه ليس فيها إلا النعيم، ليس فيها أي شيء يشوبها، جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، فليس فيها من شائبة تنقصها، من مُكَدَرَاتِ الدنيا، من هموم الدنيا، من غموم الدنيا، ليس فيها ما ينغص العبد من خوف زوال هذه النعمة، كما هو في شأن جنات الدنيا وفي نعيم الدنيا.

لذلك من صفة الجنة أن العبد فيها مقيم، والنبي فيها نديم، والمضيف فيها الكريم، والثواب فيها عظيم، والعطاء فيها جسيم، والحزن فيها عديم، الله اكبر، العبد فيها مقيم، والنبي فيها نديم، فبشراكم بمرافقة النبي ﷺ، وبأن تجلسوا بين يدي النبي محمد ﷺ في الجنة، والله هذا من أعظم النعيم، والذي يضيّفنا هو الرب الأكرم الكريم، والمضيف فيها الكريم، والثواب فيها عظيم والعطاء فيها جسيم، والحزن فيها عديم، لذلك فهي {جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ}.

{لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ}[الحجر/48]، يارب أدخلنا الجنة يارب، اللهم ارزقنا الفردوس الأعلى، في رفقة النبي محمد ﷺ، اللهم أدخلناها بغير حساب ولا سابقة عذاب.

{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ } لاحظوا هنا أنه قدّم للمتقين لم يقل إن جنات النعيم للمتقين، وإنما قدم هنا المسند على المسند إليه، يعني قدّم هنا الخبر على المبتدأ، وهذا من باب اهتمام الرب تبارك وتعالى بشأن المتقين، فإن الآخرة عند ربك للمتقين، وإن أكرم الناس عند الله هم أهل التقوى، وإن الطريق إلى الله عز وجل لا يجوزه إلا أهل التقوى، ولا يفهم القرءان إلا أولئك { ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة/2]

مقارنة المتقـــيـــــــن بالمجرميــــن

ثم قال جل وعلا:{أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ}[القلم/35]، هنا الاستفهام استفهام إنكاري، والمعنى أنسوي في الحكم بين الأضطاد، أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ أي في الجزاء والعاقبة الحسنة؟ لا يكون هذا أبدًا، فإن تسوية المسلمين بالمجرمين ينافي عدل الله تبارك وتعالى، ينافي أن الله تبارك وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، والله تبارك وتعالى هنا يوبخ

كل من يخطر بباله أن أهل الإيمان كأهل الإجرام عند الله عز وجل، وأن الله من فضله على العباد أن يغفر لهم وأن يسوي بين هذا وذاك، الله تبارك وتعالى قال لنا لكي ينبهنا لهذه المسألة {أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الجاثية/21]

لذلك قال:{أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ} وهذا رد لقولهم بأنه لا فرق بين المؤمن والكافر، لذلك لما قال قائلهم:{ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ}[فصلت/50]، فإن الله عز وجل أجاب مبطلاً هذا القول بقوله:{ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ}[القلم/35]

وهذا تقرير لما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم، ورد لما يقوله الكفرة عند سماعهم لأحاديث الآخرة، وما أعد الله عز وجل للمسلمين، فإنهم كانوا يقولون (إن صح أن نبعث كما يزعم محمد ﷺ لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا)، فرد الله عز وجل قولهم وقال أنحيف في الحكم، أنظلم؟ لا يكون هذا.

أنجعل المسلمين الذين كابدوا مشاق الطاعات، وتركوا المخالفات، كالكافرين الذين عجلت طيبتاهم في الحياة الدنيا؟، لذلك قال لهم موبخاً مُقرّعًا {مَا لَكُمْ} أي أيُ شيء حصل لكم ما الذي دهاكم، فهو إنكار، وتوبيخ، وتعجيب، واستبعاد، مالكم كيف تحكمون هذا الحكم الأعوج؟ بأن تسووا بين المطيع والعاصي، كأن أمر الجزاء مفوض إليكم، كأنكم أنتم الذين تحكمون، أنتم الذين تديرون دفة الكون!!.

{ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(37)} [القلم] {أَمْ} هي المنقطعة ،ومعناها بل، {أَمْ لَكُمْ} أي بل لكم كتاب فيه تدرسون، والتقدير بل ألكم كتاب فيه تدرسون؟، معنى الكلام أم لكم كتابٌ نازل من السماء فيه تدرسون تقرؤون في ذلك الكتاب.

{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ} أي في ذلك الكتاب، {لَمَا تَخَيَّرُونَ} أي إن ما تختارونه وتشتهونه يحصل لكم، الأصل تدرسون أن لكم ما تتخيرون، على معنى أن الله عز وجل يُقرّعُهُم ويوبخهم على هذا السفه في العقول، هل عندكم كتابٌ منزلٌ من السماء فأنتم تقرؤونه وتجدون فيه ما تتخيرون؟، هل عندكم من شريعة هي توافق ما تشتهيه أنفسكم من الأحكام؟، والله هذا الكلام يحتاجه أناس كثر في هذا الزمان، ممن {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}[الصافات/35] ، ممن إذا قيل لهم {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ}[الأنعام /57] ، إذا به يولي ظهره، وإذا به يتوجه تلقاء المشرق والمغرب، ويقول هذا كلام أهل العقول المعطوبة، ويقول إن هذا الطريق مآله إلى تحكم الدول الكبرى في المسلمين ونحو ذلك، ثم بعد ذلك تسأله إذن (لا بد من قانون) أنت حر ما لم تضر، نعم، أنت حر لكن هذا الضرر الذي أنت تسميه (أنت حر ما لم تضر)، إذا كنت أنا أتضرر من حريتك فلماذا تجور علي في الحكم، هل لك من كتاب مُنَزّل من قِبَل رب العالمين عليك لتحكم بهذه الأحكام، هل لك من شريعة اصفطاك الله بها، إنه لا نبوة بعد النبي محمد ﷺ، ولا كتاب بعد القرءان، ولا شريعة بعد شريعة الإسلام.

{ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39)}[القلم]

{أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ} الأيمان هنا معناها العهود والمواثيق، هل لكم من ميثاق، هل لكم من عهود بالغة، أي مؤكدة، {أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ} عهودٌ جعلناها على أنفسنا، جعلناها مؤكدة إلى يوم القيامة، أي دائمة إلى يوم القيامة مؤبدة، {إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} أي إن لكم الذي تحكمون به لأنفسكم، والمعنى هل أعطيناكم عهود مؤكدة بالأيمان لإثبات حقكم المزعوم وهو أن لكم الجنة، هل أخذتم هذه العهود؟، بعض الناس يتصرف وكأنه دخل الجنة، وكأنه انتهى الأمر، وطالما يقول لا إله إلا الله، وأين شروط لا إله إلا الله السبعة؟، وأين مقتضيات لا إله إلا الله، وأين من قال لا إله إلا الله صدقا من قلبه خالصة من قلبه، أين ذلك، بعض الناس شأنهم هكذا، ينطبق عليهم قول الرحمن {أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ} عهود مؤكدة بالأيمان، بالغة متناهية في التوكيد، إلى يوم القيامة ثابتة لكم إلى يوم القيامة، تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه، وافرة لم يبطل منها يمين، إلى أن يحصل هذا المقسم عليه، {إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} فهنا رب العزة تبارك وتعالى يقررهم ويوبخهم توبيخاً شديدا.

ثم توجه الخطاب إلى النبي ﷺ فقال {سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ}[القلم/40]

"سلهم" لإقامة الحجة عليهم، أي واحد يدَّعي أنه جاء بشرع أعظم من شرع القرءان، جاء بشريعة أعظم من شريعة الإسلام، أي إنسان منكم يستطيع أن يقول أنه عنده الحجة البالغة ليقيمها، {سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ}، ومن يقف الآن ويتكلم ويلبس على الناس، ويقول نحن لا نتكلم عن الشريعة نحن لا نتكلم عن الإسلام، نحن نتكلم عن مفهوم بعض الناس، بعض الآراء التي لا تمت إلى الإسلام أو التي فيها غلو بعيد عن الإسلام، وهو يلبس على الناس، لأنها المسألة طالما يتكلم في آراء , فإذن يا عبد الله ألستم أنتم من تقولون بأن في الدين ما هو قطعي وفيه ما هو ظني؟ ألستم تقولون أن هناك من العلوم الضابطة لفهوم الناس وإلا لما كان علم مثل علم أصول الفقه، أليست هذه العلوم جُعِلت لضبط فهوم الناس؟، أليس الأمر كذلك؟، أين ما تقولونه أنتم من هذا الذي تقتضيه هذه العلوم؟، هذا هو الذي يجعلنا نقول لكم أأنتم عندكم عهد من الله، أأنتم تستطيعون أن تقولونها بملء الفم بأن لكم كتاب منزل من قبل الله بعد القرآن، أأنتم تستطيعون أن تتكفلوا بمثل ذلك، {سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ} أي كفيل وضامن، سلهم من المتعهد بأن لهم ما يشاءون، منطق الذي صار كالنار في الهشيم بين الناس الآن، ما يشتهوه يفعلونه، والدين الهوى،{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ }[الأعراف/176]

إذن سلْهم أيهم بذلك، والتعبير بذلك، التي هي للإشارة للبعيد للدلالة على بعد حكمهم عن العدل، وعن الصواب، واستهجان ذلك، لأنه يناقض العقل، ويناقض الحكمة، {سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ} أي سلهم ألهم شركاء، يشاركون الله في حكمه وتدبيره؟، إذا كان الأمر كذلك فليأتوا بشركائهم، إن كان لهم شركاء، فليأتوا بهم، وهذا من التهكم والتعجيز.

{إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ}إن كانوا صادقين في زعمهم أن لهم شركاء، فليأتوا بهؤلاء الشركاء، وبهذا الإنكار والتوبيخ بهذه الاستفهامات يتبين بطلان حكم أولئك، وأنه لا مستند لهم لا من كتاب، ولا من عقل، ولا من ضامن، ولا من شريك، فثبت كذبهم من جميع الوجوة.

الحكمة من هذه الآيـــــات

❖ الحكمـــة الأولى: فقه سياسة النفس

هذه الآيات تُعلّمنا دروسًا مهمة، أولاً عادة القرءان اتباع الوعد بالوعيد أو الوعيد بالوعد، والانذار بالتبشير، وهذا من فقه الدعوة، وهذا من فقه سياسة النفس، الواحد مننا لو أراد أن يربي نفسه تربية إيمانية حقيقية لابد أن يعرض نفسه على الأمرين، على ما يخوفها وعلى ما يرجيها، على ما يرهبها وعلى ما يرغبها، على ما ينذرها وعلى ما يبشرها، هكذا جَبَل الله عز وجل النفوس البشرية، وهذا من فقه تربية القرءان، للناس اتباع الوعيد بالوعد، والإنذار بالتبشير، فاجمع بينهما حتى يَصلح لك سياسة نفسك.

الواحد في وقت من الأوقات يكون مغتر، ولا يفرق معه أن يقترف بعض المخالفات ويقع في بعض التقصير، ويطلع بعدها بمنتهى برود القلب، ويقول (أصابني فتور، لم أعد أصلي صلاة الفجر، ولا أقيم الليل، ولا أحافظ على الأذكار، ليس لي ورد من القرآن أغيثوني)، هكذا وكأن الأمر ليس بالخطر العظيم، أنا دائماً أصف هذا الحال بأنه أعراض، والعياذ بالله، أعراض مريض بورم سرطاني، لو لديه إحساس بأن هذا أعراض لهذا المرض كيف سيكون حاله؟، حينها سيعطي الواحد لنفسه جرعة الوعيد والخوف حتى يستفيق، وأوقات تكون الأمور صعبة جداً والشيطان يصيب الإنسان بالتخذيل {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا}[يوسف/5]، والإحباط، والإكتئاب، والمشاكل النفسية، فيحتاج جرعة أمل، يحتاج شيء من الرجاء حتى يسلم له قلبه.

إذن الفائدة الأولى هذا من فقه سياسة النفس، ومن عادة القرءان، في سياسة الأنفس عن طريق اتباع الوعيد بالوعد والإنذار بالتبشير.

❖ الحكمـــة الثانية: فضل التقـــوى

الأمر الثاني من فوائد هذه الآيات، بلا شك الدلالة على فضل التقوى، وأنها سبب الفوز بالجنة، بل سبب الفوز بكمال نعيم الجنة، وبالتالي هناك معنى مهم في التقوى ينبغي أن نتوقف عليه، الناس دائما عندما يأتي ذكر التقوى يفهموا إنها خوف، يفهموا (اتق الله يعني خاف الله)، أما المعنى فأعلى من ذلك، ليس الخوف فقط، بل خوف، ومراقبة، وأيضاً حياء، كل هذا في التقوى. لما أقول لك اتق الله يعني استحي من الله، يعني خاف من الله عز وجل، يعني راقب الله يعني هذا ليس حق ربك الودود، يعني هذا ليس حق ربك الذي ينعم عليك بكل هذا النعيم، والذي جعل على نفسه إن كنت صالحا أن يرزقك بجنات النعيم، ليس من حقه عليك أن تبقى منصرفا عنه هكذا، هذا معنى مهم أن نفهمه في التقوى.

لذلك قال النبي ﷺ لحبه معاذ "اتقي الله حيث ما كنت" [الراوي:أبو ذر الغفاري المحدث:الألباني المصدر: صحيح الترمذي- الصفحة أو الرقم:1987 خلاصة حكم المحدث:حسن]، ففي كل وقت نجد أثر من آثار التقوى.

❖ الحكمـــة الثالثة: مفهـــوم الربوبية

الفائدة الثالثة هناك ما يسمى الربوبية الخاصة {عِندَ رَبِّهِمْ}، هو رب العالمين لكن {عِندَ رَبِّهِمْ} لما قال عند ربهم{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ}، قلنا إن هذه العندية، وعد وضمان من الله تبارك وتعالى، ولم يقل إن للمتقين عند الله جنات النعيم، إن للمتقين عند إلههم جنات النعيم. هنا {عِندَ رَبِّهِمْ} لأنه هو سبحانه وتعالى الذي يسدى عليهم نعمه، ولأنه الذي خلقهم، وهو الذي تدبر أمورهم، وهو الذي تكفل برعايتهم، وهذا من مقتضيات الربوبية، وربنا تبارك وتعالى دائما ما يذكر الربوبية ليدلل بها على استحقاق الألوهية، طالما هو الرب الذي خلق، والذي رزق، والذي دبر الأمر، والذي أحيا، والذي يميت سبحانه وتعالى، طالما الأمر كذلك، إذن هو سبحانه وتعالى الأحق بأن يكون الإنسان متعبداً له خالصاً له، إذن إثبات الربوبية الخاصة {عِندَ رَبِّهِمْ}.

❖ الحكمـــة الرابعة: الترغيب و الترهيب

هنا أيضاً من الفوائد الخاصة بهذه الآية، أن ربنا تبارك وتعالى أشار إلى أن للمجرمين عذاب النار في الآخرة، لأنه لما قال:{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ}[القلم/34]، ثم قال:{أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ}[القلم/35]، وذلك بعد أن قال{ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [القلم/33]، ثم قال{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ}، وبمقتضى هذا معناه إن للمجرمين عذاب النار في الآخرة، لكن انظروا القرءان لمّا تكلم عن المجرمين لم يقل إن للمجرمين عند ربهم نار الجحيم، وإنما قال: {وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }، ثم قال: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ}، وكأنه الإنسان عندما يحب أن يربي ابنه على معنى، فيقول له انظر لفلان لمّا اجتهد ماذا عمل، أرأيت كيف كانت فرحة أهله به، وأرأيت كيف كانت ثمرة اجتهاده، فكانت ثمرة هذا الكلام كذا وكذا وكذا، وكأنه يُلْمِح إلى (انظر لنفسك عندما أصبحت غير مهتم، ولم تأخذ الأمر مأخذ الجد كيف كان).

فهنا الله تبارك وتعالى ضرب المثل بأهل التقوى حتى تهوى الأنفس لهذا النعيم، وفي نفس الوقت يكون هناك انصراف عن العذاب الأكبر في الآخرة وهو عذاب النار للمجرمين، فإذن هنا إشارة في قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ}، إشارة إلى أن للمجرمين عذاب النار في الآخرة، ولاحظنا فى طريقة القرءان في معالجة الأنفس كيف يكون الأمر.

❖ الحكمـــة الخامســـة : المحــــاسبة

من الفوائد أيضاً الخاصة بهذه الآيات: الفائدة الخامسة، أن حكمة الله تبارك وتعالى تأبى التسوية بين المسلمين والمجرمين، وبين المصلحين والمفسدين، وبين المتقين والفجار، فلا يمكن أن يكرم الله الجميع، وهنا وقفة والله لو أن هذه الآية وقرت في قلوبنا لغيرت فينا الكثير من المفاهيم: يا ناس يا من تقلدوا كل ناعق، يا من لم تلاحظوا خطورة

اتباع غير سبيل المؤمنين، يا ناس يا من لم تفهموا هذا القانون الرباني العظيم، مع من تحب أن تكون؟، هل تعتقد أن الله سيسوي بين مصلح ومفسد؟، بين تقي وفاجر؟، هل يمكن أن يخطر ببال أحد الناس أن يكون مآل الموحد كمآل الكافر، وكذلك هل تعتقد أنك إن وقفت على ما تقترفه نفسك من المعاصي وحين تقف ويقول الله عز وجل{كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء/14]، هل تعتقد أنك في أي الكفتين ستكون، يا جماعة الآيات والله تحتاج إلى وقفة، {أَم نَجعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفسِدِينَ فِي الأَرضِ أَم نَجعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ}[ص/28]، آية سورة الجاثية آية { أَم حَسِبَ الَّذِينَ اجتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ } [الجاثية/21]، (السَّيِّئَات) جراحات السيئات تُقطّع فينا، السيئات هي سبب كل ما نحن فيه من عذاب، {أَم حَسِبَ الَّذِينَ اجتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجعَلَهُم كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحيَاهُم وَمَمَاتُهُم سَاءَ مَا يَحكُمُونَ }[الجاثية/21]، سلم يا رب سلم.

إذن قالوا للعدل الإلهي فلا تغتروا، لا يمكن التسوية بين مذنب وبين طائع لكن أيها المذنب أبشر فإنك إن تبت صرت عند الله بأعلى المنازل، وتحول اسمك من مذنب إلى تائب و{اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ}[البقرة/222]، والله يفرح بتوبة عبده والله يبدل سيئات عبده حسنات، فالمعنى كما صارت الآيات رجاء وخوف.

إذن مقتضى العدل عدم التسوية بين المختلفين، فلا يمكن أن يكون هناك شيئين مختلفين ثم نسوي بينهما، هذا ينافي العدل، هذا هو الظلم، هذا هو تعريف الظلم، يكون الشأن أن نفرق بين المتماثلين وأن نسوي بين المختلفين، هذا تعريف الظلم، فإياكم والظلم.

❖ الحكمـــة السادسة : أساليب عرض الحجة

إذن هذه الآيات أشارت إلى هذا الأمر أيضا . من الإشارات في هذه الآيات، كذلك الله تبارك وتعالى استخدم أساليب في عرض الحجة، استخدم هنا الاستفهام في ثلاثة مواضع في هذه الآيات:{أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ}[القلم/35]، {أَمۡ لَكُمۡ} على معنى بل ألكم، وذُكِرت مرة ثالثة، وهذا من أساليب الخطاب عند مجادلة الخصم العنيد المتكبر، أن يستخدم معه مثل ذلك، من عبارات التوبيخ والتقريع مما يناسب أولئك، ولذلك في هذه الآيات مشروعية توبيخ المشركين على شركهم، وتعجيزهم أن يأتوا بشركاء لله على الحقيقة، والارشاد إلى كيفية جدال أولئك وقطع جميع ما يمكن أن يتعلقوا به، لمّا تحب تُجادل ملحد، تحب أن تجادل مشرك، تحب أن تجادل خصم عنيد، عليك بأنك تأتي بكل المتاح، وتدفعه، يا ستفعل كذا يا ستفعل كذا، لو فعلت كذا يكون حالك كذا وكذا، لو قلت كذا يكون كذا وكذا وكذا، هذه طريقة قرءانية ترشدنا إلى كيفية محاجة، وجدال أهل الشرك.

❖ من الفوائد العلمية: صحة عقد الكفالة والضمان

من الفوائد العلمية في هذه الآيات، صحة عقد الكفالة والضمان، يصح أن يكون الإنسان في ضمان أو في كفالة هذه العقود، عقود الكفالة والضمانات، صحيحة لقول الله تبارك وتعالى { سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ }[القلم/40] أي كفيل.

ومن فوائد هذه الآيات، أن الأيْمَان والعهود المطلقة تقتضي التأبيد، إذا خلت عن نية التوقيت، ماذا يعني؟، يعني لو واحد قال (عهد علي أن أعمل كذا)، يعني طول الوقت سيصنع كذا وكذا وكذا، فإذا قال عهد علي أن أصنع كذا، يعني سيكون هذا طول العمر، إلا إذا ظهر من كلامه أنه كان يقصد به وقت معين، فالأيْمَان واحد حلف، قال مثلا، كما يصنع كثير من الرجال مع زوجاتهم، (والله لن تفعلي كذا، والله لن تفعلي كذا، هذا معناه أنك لا تفعلينه طوال الوقت، إلا إذا استفدنا من الكلام أن قصده لا تفعلي كذا في هذا الوقت)، لمَ؟ لأن ربنا سبحانه وتعالى قال هنا في الآية{أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ}[القلم/39]

يعني هكذا مطلقة، أيمان مطلقة، الأصل فيها أن تكون مطلقة، ليست مقيدة بوقت من الأوقات،

ومن مقتضى ذلك، أن الوفاء بالعهد واجب، وإلا لما لامهم الله عز وجل وعاتبهم، ولا يجب على الله إلا ما أوجبه سبحانه و تعالى، على نفسه، ولكن الوفاء بالعهد في حق الناس واجبٌ، ولكن ربنا تبارك وتعالى من فضله ومنته أنه سبحانه وتعالى أخبر أنه لا يخلف وعده، لذلك يقول سبحانه وتعالى{وَعدَ اللَّهِ لا يُخلِفُ اللَّهُ وَعدَهُ}[الروم/6]، هذه فوائد هذه الآيات الكريمات التي تدارسناها، ووقفنا على ما فيها من هذه المعاني الإيمانية.

- شرح المقطع الثاني

ثم ذكر الله تبارك وتعالى ما أعده لعباده المؤمنين من الجنات في الآخرة، وأبطل زعم المشركين في إدعاء الجنة، وأن لهم ما يتخيرون، فاتبع ذلك بمشهد من مشاهد القيامة، وما يكون فيه للكفار، والمكذبين، والمنافقين من الأهوال، والخطوب، والعذاب الأليم، قال الله سبحانه وتعالى:{ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ(42) خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ(43)}[القلم]

وصـف مشهد يوم القيامة

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} أي أذكر لهم، هذا الأمر الشديد المُقطّع من الهول يوم القيامة، أذكر لهم لأولئك المكذبين المشركين، ذلك المشهد من مشاهد القيامة، وما فيه من الهول، حيث يُدعونَ إلى السجود للجبار جل جلاله فلا يستطيعون

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}، يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحدا، كما أخبر نبينا ﷺ، والحديث في الصحيحين حديث أبي سعيد الخضري الطويل، وهذا لفظ البخاري:" يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحدا".

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}، ذُكر في هذه الآية أن ابن عباس رضي الله عنهما، وذهب إلى ذلك جماعة من الصحابة والتابعين، كما قال ذلك ابن جرير الطبري وارتضاه، أنه معنى قوله تبارك وتعالى {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}، أي يكشف عن الشدة، هذا ليس من التأويل، حتى لا تفجأكم هذه المسألة، هذا قول من أقوال أهل العلم، قلت هذا مذهب ابن عباس، وقول جماعة من الصحابة والتابعين، وارتضاه ابن جرير الطبري، لكن الطائفة الآخرى من أهل العلم فسّروا الساق بأنها ساق الرحمن، جاءت منكرة للتفخيم والتعظيم، وهذا ما ذهب إليه العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة، وعلى هذا فتفسير الآية يوم يكشف عن ساق الرحمن، {يُدْعَوْنَ} أي المنافقين، فإنه قد جاء في الحديث نفسه أنه:" ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فلا يبقى حيئذ إلا المؤمنون والمنافقون، فيكشف الله عن ساقه فيسجد المؤمنون، ويعجز المنافقون عن السجود".

بعض العلماء تكلموا حول هذه الآية، وقالوا يوم يكشف عن ساق، أو يوم يكشف عن ساق الرحمن، أو يوم يكشف عن هذه الشدة، كما قال سبحانه وتعالى:{وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} [القيامة/29]، على الصحيح في تفسير تلك الآية، وهنا الكشف عن الشدة، ليس هو كشف الشدة يعنى ليس رفع الشدة، يوم يُكشف عن ساق يعني يوم يُكشف لهم ما هي الشدة الحقيقية، كشف الغطاء عن الشدة، من باب تعظيم هذا الهول، واشتداد الخوف، فتكون الآية من معنى، وكشفت عن ساقيها أي أزالت الغطاء عنهما، {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليَومَ حَدِيدٌ} [ق/22]، يبقى المعنى إنه يكشف عن ساق، يكشف عن الشدة، وليس رفع الشدة، وإنما تبيين وإظهار للشدة،

{يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ}[القلم/42] أي يُدعى الكفار والمشركون، فإذن تعود الواو في قوله إلى المشركين،{أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين}[الأنعام/70].

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ }[القلم/43]، وبهذا يتحقق الإرتباط بين الآيات، قلنا هذا يفسره، الحديث الذي تقدم، حديث ابي سعيد الخدري الذي في بخاري ومسلم، ولهذا ذهب طائفة من مفسري أهل السنة إلى تفسير هذه الآية{ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}[القلم/42]، بما جاء في الحديث، وقالوا إن الساق في الآية، هو الساق في الحديث، ساق الله تبارك وتعالى، وعليه فتكون الآية من آيات الصفات، وخير ما فسر به القرءان القرءان وسنة النبي ﷺ.

وهناك من أهل العلم من جمع بين المعنيين، معنى الساق بمعنى الشدة، والساق التي هي صفة لله تبارك وتعالى، وقال إنها تكون شدة وأهوال يوم القيامة، فإذا جاء الرب للفصل بين عباده كشف عن ساقه، ودُعيَ أهل الموقف للسجود، فيسجد المؤمنون ولا يستطيع الكفار والمنافقون السجود، معنى هذا أن ما ذُكر في الحديث من كشف الله عن ساقه، وسجود المؤمنين، وتعذر ذلك على المنافقين، هو المشار إليه من أن هذا سيكون امتحانا شديدًا عليهم.

والذي يَظهر بعد إمعان النظر في الآية والحديث، أن ذلك يكون مرتين، المرة الأولى مع عموم أهل الموقف من المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، والمرة الثانية مع المؤمنين، والمنافقين، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ" فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة" [الراوي: أبو سعيد الخدري المحدث:البخاري - المصدر:صحيح البخاري- الصفحة أو الرقم:7439 خلاصة حكم المحدث:[صحيح]]، الأول ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيقول النبي ﷺ"فيأتيهم الجبار" يعني عموم أهل الموقف،"في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونها، فيقولون: الساق، فيكشف عن ساق، فيسجد له كل مؤمن"[الراوي: أبو سعيد الخدريالمحدث: البخاري - المصدر:صحيح البخاري- الصفحة أو الرقم:7439
خلاصة حكم المحدث:[صحيح]]، إذن يأتيهم الجبار في صورة غير صورته هذا في الأول، ثم بعد ذلك يقول "هل بينكم وبينه آية تعرفونها" ظاهر ذلك أن الله كشف عن ساقه في المرة الأولى.

قوله "فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة" هذا يتضمن فرق بين الآية والحديث، من وجهين أولهما، أن المؤمنين يسجدون لكشف الله عن ساقه دون أن يُأمروا، أول ما يكشف الله عن ساقه يكون شأن المؤمنين أن يسجدوا، وأن الذين يعجزون عن السجود كانوا يسجدون في الدنيا رياء وسمعة أهل النفاق، فيُدعون إلى السجود أي يقال لهم اسجدوا، وهم حين إذن لا يستطيعون صنيع ذلك، ويشهد لهذا ما جاء عن ابن عباس، فيما روى ابن جرير الطبري وغيره {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [القلم/43].

قال ابن عباس: هم الكفار، كانوا يدعون في الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون. وروى ابن جرير عن إبراهيم النخعي، في قول الله تبارك وتعالى، { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ } [القلم/42] ، قال يوم يكشف عن ساق، ولا يبقى مؤمن إلا سجد، وتيبس ظهر الكافر، فيكون عظماً واحدا فقوله تبارك وتعالى{ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [القلم/43]

أي يدعون إلى السجود فلا يسجدون، ونظير ذلك{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ } [المرسلات/48]، ونظير ذلك{ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ* قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ }[المدثر:43/42]

خلاصة اختلاف أهل العلم في الآية { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ }

- أن السلف من الصحابة والتابعين اختلفوا في المراد بالساق في هذه الآية، فمنهم من فسرها بأنها ساق الرحمن تبارك وتعالى، فعلى قوله تكون آية من آيات الصفات.
- ومن لم يفسرها بالحديث قال إن الكشف عن الساق هذا معنى من المعاني التي يُدلل بها على شدة الأمر حينئذ.

- وهناك من جمع بين الآية والحديث على ما تقدم.
- وأما الذين لا يثبتون صفات الرحمن فإنهم لم يختلفوا وقالوا { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ } [القلم/42]؛ أي كناية عن الشدة والكرب.

ولكن على طريق أهل السنة والجماعة نجمع بين الأمرين على ما تقدم، فيكون هذا دليل على وقوع الشدة يوم القيامة، وهذا فيه تهديد للمشركين بذلك، وهذا سيكون في أول الأمر، والله تبارك وتعالى سيأتي أهل الموقف في صورة غير صورته، ثم بعد ذلك يكشف عن ساقه، فيعرفه أهل الإيمان بهذه الصفة، فيسجدون ويخروا سجَّدا دون أن يُأمروا، ثم يُأمر أقوام بالسجود فلا يقومون بذلك سواء كان هذا عامًا، فيدخل فيه أهل الكفران وأهل النفاق، أو خاصًا بأهل النفاق الذين دُعوا إلى الصلاة فلم يصلوا.

وإذا قلتم وهل الكافرون كانوا يُدعون إلى الصلاة في الدنيا؟، نعم وهل هم مخاطبون بها؟، أليس من شروط صحة الصلاة الإسلام؟، أقول وما تفعلون في قول الله تبارك وتعالى في شأن أهل سقر { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46) } [المدثر:42-46]، إذاً كانوا كفرة يكذبون بيوم الدين وأمروا بالصلاة.

إذن هذه الآية العظيمة الجليلة توقفنا معها وقفة علمية، لأن هذه مسألة عقدية لا ينبغي بحال أن نفوت ذكرها ونبينها، لأنها من مسائل المعتقد التي يباين فيها أهل السنة غيرهم من أهل البدع.

{ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم-42]، يُدعون للسجود فيعجزون عن ذلك.

{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} [القلم-43]؛ الخشوع معناه السكون، وهنا المراد ذلّهم وحسرتهم وخوفهم، {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} [القلم-43]؛ لِما كان من هول ما رأوه، {تَرْهَقُهُمْ}[القلم-43]؛ أي تغشاهم، ترهق رَهَقَ من باب تَعِبَ، ترهقهم تغشاهم ذِلَّة، صَغَار، وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى الصلاة إلى السجود إلى الصلاة بشرطها، والمراد هنا التوحيد، وعبّر عن الصلاة بالسجود، لأنه من أهم أركان الصلاة، {وَهُمْ سَالِمُونَ}[القلم-43]، أي من ما بهم الآن بل كانوا أصحّاء قادرين، هذه الآية كما قلت في قول الله تبارك وتعالى:

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ } [المرسلات/48]، ولم يُذكر الداعي فـــ{يُدْعَوْنَ} في الآيتين، لأنه لم يتعلق بذكره غرض، والعبرة بذكر الدعوة نفسها، ودعائهم بالسجود لله تبارك وتعالى.

بطبيعة الحال هذه الآيات إن دلت على شيء، فإنما تدل على هول يوم القيامة، وتثبت البعث والجزاء، وتبين خطورة أمر الصلاة، فإن الجزاء عند الله عز وجل من جنس العمل، فإذا كنا نقف في الصلاة، فلا نخشع فينبغي أن نردد على مسامعنا قول الله تبارك وتعالى:{ أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ(4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) }[المطففين]

وإذا كنا لا نقوم بوصية النبي محمد ﷺ: "أعني على نفسك بكثرة السجود"._[الراوي مصعبالمحدث:الشوكاني المصد: در السحابة- الصفحة أو الرقم:417 خلاصة حكم المحدث : إسناده

رجاله رجال الصحيح غير طالوت بن عباد وهو ثقة] ، يا هذا، يا هذه، يا من تقولون نَفْسُنَا أمارة بالسوء، لا نعرف ماذا نفعل معها، الواحد منّا أصابه الملل من كثرة آفات نفسه، الواحد تعب من كثرة العيوب التي لا يستطيع التخلص منها، هذه الذنوب ألن نتخلص منها؟، هذه المشاكل ألن يتوب ربنا علينا منها؟، هكذا يا من تضجرتم، ومللتم من خطاب عيوب النفوس، وآفات النفوس، وتطهير القلوب، وتزكية هذه الأنفس، تعبنا من هذا الخطاب، يقال لك ولِمَ لا تعيننا على نفسك عبد الله، أعيننا على نفسك، استعن بكثرة السجود على نفسك، "أعيني على نفسك بكثرة السجود".

وإذا كنت يا هذا تشتكي البعاد، وتقول ألا بعدا، وتقول بلسان حبر بني إسرائيل يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني، بل كم أعاقبك وأنت لا تدري، ألست قد حرمتك لذة مناجاتي، يا من تشتكي البعاد، أما سمعت {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب} [العلق/19]، سجودك يجعلك من طالبي القرب، يجعلك أقرب ما تكون من ربك وأنت ساجد، سجودك يحقق معنى العبودية التي خلقت من أجلها، لما الواحد يسجد ويفضفض، ويستشعر ذله، ويستشعر يسجد بين يدي من، ولمن، ويناجي ربه، ويستشعر دنوه، وحقارته حقارة الإنسان، ودنو الإنسان، في مقابل علو ربه (سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبوح قدوس رب الملائكة والروح)، لمّا يستشعر هذه المعاني يُسكب في قلبه من معاني الإيمان ما لم يبلغه في أمثال تلك المواضع أبدا، لا يحصله أبدا في أي موضع آخر، مثل هذا الموضع، ولذلك إنها وصية بكثرة السجود، يا من تشتكي الكبر: { إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ }[الأعراف/206]

ولذلك علينا أن نأخذ بهذه الوصية، بأن نتعهد أمر صلاتنا، ونكثر من النوافل حتى إلى ربنا، ونكثر من السجود خاصة، ونجعل هذا الركن في الصلاة له مذاق مختلف، بكثرة الثناء على الله عز وجل، والدعاء، فهذا ربما يكون علاجك وأنت لا تدري.

❖ الفائدة الأولـــى

من فوائد هذه الآيات، أن الكفار يسمعون في الآخرة، وفي بعض الأحوال لا يدركون ولا يسمعون، فالله عز وجل قال: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } [الإسراء/97]، وهذا من ذل الكافرين في هذا اليوم، وهذا من جزاء استكبارهم عن الحق في الدنيا، إياكم والكبر بطر الحق وغمط الناس.

❖ الفائدة الثانيـــة

ومما يستفاد من هذه الآية، قاعدة العقاب بنقيض ما كانوا عليه وما قصدوا، يعني أهل الكبر يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر، يعني الذين علووا في الدنيا يكونون أذل ما يكون في الآخرة،

{ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا } [القصص/83]

فينبغي أن نفهم هذه العاقبة الربانية كذلك، العقاب بنقيض ما كان عليه الناس من أهل الإجرام وأهل الخطايا.

❖ الفائدة الثالثـــة

منها كذلك، أن الله عز وجل لا يكلف العبد ما لا يستطيع، لذلك قال الله عز وجل وهم سالمون يعني يعذر سبحانه وتعالى المريض، الذي لا يستطيع بسبب علته أن يسجد، فهذا دليل على رحمة الله عز وجل بعباده، لأنه لا يكلف الناس إلا ما يستطيعون{ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة/286]، لذلك قال:{وَهُمْ سَالِمُونَ}[القلم-43]فلا عذر لهم في ترك السجود في الدنيا لأنه قال:

{وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم/43]، ثم قال الله تبارك وتعالى: { فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } [القلم/44]، سلّم يا رب سلّم، الاستدراج "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، فيما يرى الناس حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراعا، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها"[لم يتم التعرف على الخراج بهذا النص]

"إنما الأعمال بالخواتيم" [الراوي عائشةالمحدث:ابن عدي - المصدر:الكامل في الضعفاء- الصفحة أو الرقم:551/1 خلاصة حكم المحدث:من حديث هشام بن عروة غير محفوظ] ، لا يضرنكم شأن أي إنسان، إن الحي لا تؤمن عليه الفتنة {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ }، ما أخطرها من آية: من حيث لا تدري، من حيث لا تحتسب، يكون العقاب المر، فيوالى عليه بالنعم، حتى يتمادى في الغي، فيعظم الإثم.

{ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(44)وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(45)أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(46)أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(47) } [القلم]،

فذرني هذه تسمى الفاء الفصيحة، أي إذا كانت أحوالهم كذلك، فذرني ومن يكذب بهذا الحديث بهذا القرءان، فاتركني وهذا المكذب بالقرآن، وخل بيني وبينه، وهذا فعل أمر للتهديد، وكثيرا ما يستعمل هذا الفعل في التهديد، كقول الله تبارك وتعالى : { ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } [المدثر/11] ، و قول فرعون: { ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ } [غافر/26]، سنستدرجهم أصل الاستدراج أن تنزل بالمرء درجة درجة إلى حيث تريد به، كلمة الاستدراج جاءت من الدرج أن تنزل أنت به درجة درجة حتى تأتي به في ما تريد، وهنا قوله {سَنَسْتَدْرِجُهُم} هذا استدراجه للعصاة، بأن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلون رزق الله وسيلة للمعاصي، {سَنَسْتَدْرِجُهُم}، فكلما جددوا معصية، جددنا لهم نعمة وانسيناهم شكرها، النبي ﷺ قال:"إذا رأيت الله ينعم على عبد وهو مقيم على معصية فاعلم أنه مستدرج "[لم يتم التعرف على التخريج بهذا النص]، ثم تلا هذه الآية.

خطـــورة الاستـــــدراج

فإذن إن من أخطر العقوبات عقوبة الاستدراج، الله تبارك وتعالى يعامل عباده بأمور شتى، بعض العباد إذا أذنب ذنبا، عجل الله له عقوبته في الدنيا، وبعض الناس يمهله الله عز وجل، ولكن إذا عاقبه من بعد الإمهال، كان أشد عذابا، لأنه قابل النعمة، نعمة الإمهال بالطغيان، ومنهم وهو أسوأهم من ينطبق عليه {قُلْ تَمَتَّعُوا} [إبراهيم/30]،عيش وتلذذ وتمتع وافعل ما بدالك في الدنيا، فإن مصيركم إلى النار، فإذا أخذه أخذ عزيز مقتدر،

فإذا أخذه لم يفلت، هكذا يملي الله للظالم فهنا خطر الاستدراج، ستقولون قبل أن نعيش في التفسير وكيف نخلص من خطر الاستدراج؟

❖ الإخـــلاص

أقول أولاً بالإخلاص، الله تبارك وتعالى عقّب على آيات {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم/43] على أولئك الذين كانوا يراءون، كما بينّا في حديث أبي سعيد الخضري، الذين كانوا يصلون رياءَ وسمعة، هؤلاء لم يستطيعوا السجود، وكذلك أولئك الذين يراءون، الذين يحبون ثناء الناس، وتعظيم الناس، ولا يراعون وجه الله عز وجل، الذين يريدون حطام الدنيا الفاني، هؤلاء من الخطر بما كان، أن يعاقبوا بالاستدراج، إذن أول أمر، أخلص تتخلص، نقي قلبك من شوائب الرياء، اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.

❖ التحذير من الغرور

الأمر الثاني إياكم والغرور، الشيطان سماه الرب تبارك وتعالى الغرور، والدنيا غراره تغر وتظر ثم تمر، فإياكم وتغرير الشيطان لكم، إياكم وتغرير الدنيا لكم، إياكم إذا أثنى أحدهم عليكم أن تغتروا بذلك، وإنما قولوا إنما يثنون على ستر الله فينا، ربنا يسترنا ولا يفضحنا، لا تغتروا لأن أهل الاغترار هم أقرب الناس، والعياذ بالله، لحصول ذلك أن يكونوا مستدرجين، { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا* ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّـهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف/103-104].

كما يظن بعض الناس أن توالي النعم عليه دليل محبة الله عز وجل، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال عن النبي ﷺ: "إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من أحب" [صححه الألباني]

وكما يغتر بعض الناس بإمهال الله له، فبعضهم يقول في قول الله تبارك وتعالى: { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (6) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (7) } [الإنفطار]،

فيقولون غرّنا حلمك يا رب، وهذا من سفاهة العقول أن يقال مثل ذلك، الله يمهلنا ليتوب فإذا بنا نتمادى في الطغيان، {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } [القلم/44]

الأمر الآخر حتى نأمن:

1) علينا بالإخلاص، اخلص تتخلص،

2) إياكم والغرور، وإياكم وتغرير الشيطان، وتغرير النفس الأمارة، وتغرير الدنيا.

3) إياكم ومكر السيئات، الذين يمكرون السيئات، الذين يظنون أن لهم حيلة ودهاء وذكاء متعدي، فإذا بهم يضمرون الشر، وإذا بهم يحتالون، وإذا بهم يفعلون ذنوب الخلوات، فيمكرون السيئات، هؤلاء جميعا الخطر قريب، لمَ؟ لأن ربنا قال، {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } [القلم/44]، وقد قلنا إن الجزاء من جنس العمل، وأن الله تبارك وتعالى هذه سنته الماضية في مَن يمكر فيُمكر به، في مَن يكيد فيُكاد له، ولذلك جاءت الآيات بعد هذا مباشرةً، وقال:{ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ }[القلم/45]، أي أمهلم.

❖ التحذير من مكر السيئات

{إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ }؛ أي إن قوتي وإن بأسي شديد، الكيد هنا فعل هذه الأمور خُفْيَة، يظن هذا الإنسان بمكره أنه سيفلت من هذا العقاب، الناس كلها تظن عكس حقيقة الأمر فيه، ونسأل الله العفو والعافية نسأل الله العفو والعافية، اللهم اجعلنا خير مما يظن الناس، واغفر لنا ما لا يعلمه الناس، اللهم اغفر لنا ما لا يعلمون، وأصلح لنا ما بيننا وبينك يا رب العالمين،{ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ }[القلم/45].

فإذن الأمر الثالث للوقاية من خطر الاستدراج أن نحذر من مكر السيئات، يعني آية مكر السيئات، لمن يرتكب ذنوباً خفية، و يخطط، ويدبر ليعمل هذا الذنب، الذي يختلس الأوقات ليخلوا بذنوبه.

<u>يا رب عافنا واعفوا عنا يا رب، يا رب عافنا واعفوا عنا يا رب، وعافي كل مبتلى بهذه الذنوب، ذنوب الخلوات، عافه يا رب من هذا كله عاجلاً غير آجل، حتى لا يدخل في الوعيد الشديد بأن يكون مِن مَن يأتي يوم القيامة بأعمال مثل جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباءً منثورا.</u>

- **شرح المقطع الثالث**

ثم قال الله عز وجل:{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ} [القلم/45]، هذه الآية والتي تليها مرتبطتان بقوله تبارك وتعالى:{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ }[القلم/41]، لكن فصل بين هذه الآيات، بآيات تضمنت تهديداً ووعيدا .

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ } [القلم/46]

{تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا}، هذا الاستفهام إنكار وتوبيخ، أي هل تسألهم أجرا ومالاً عظيما على دعوتك إياهم إلى التوحيد؟، فهم من هذه الغرامة المالية مثقلون مكلفون حملا ثقيلا فلا يؤمنوا، أم عندهم الغيب؟، هل عندهم علم الغيب، فهم يكتبون عنه ما يحكمون به لأنفسهم، من الفضل واستحقاق الثواب؟، هنا تهديد من الله عز وجل للمكذبين بالقرءان، وتسلية للنبي ﷺ، بنصرته والانتقام من أعداءه، وبلا شك تهديد لكل من تسول له نفسه أن يخادع الله تبارك وتعالى، ويخادع المؤمنين.

الله تبارك وتعالى يوصف بالكيد، ولكن الكيد ليس على معنى الخبث، حاش لله فأي صفة تُنسب لله تبارك وتعالى فهي صفة على ما يليق به سبحانه وتعالى، والمعنى أنه يعاملهم من جراء فعالهم، وهذا من شدة العقوبة بهم، وفي الآيات تعريض بأمر مهم للدعاة إلى الله تبارك وتعالى، وهو ألا يسألوا الناس أموالا على دعوتهم، وأن الله عز وجل هو الذي يتكفل بهم، ويتكفل بأرزاقهم، فإن سؤال الناس أموالهم من عوائق قبول الدعوة، لأن الناس ينفرون مِن مَن يسألهم المال { إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ }[محمد/37]، من البخل، ازهد فيما عند الناس يحبك الناس، حتى ولو قلنا أنه ينبغي أن ينفق من بيت مال المسلمين على أولئك الذين يتفرغون يجعلون أوقاتهم في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وحل هذه الإشكالية بطبيعة الحال، أنه ينبغي أن نُفَعِّل أمر النفقة على طلبة العلم، بأن نَكْفهم شر الدنيا، وشر جمع المال على معنى من جهز غازيا فقد غزى، لأنهم يجاهدون بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى{ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا } [الفرقان/52]

الفوائـــد

من فوائد هذه الآية أن النفوس مجبولة على حب المال وأن الإنسان قتور قال الله جل وعلا:
{ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا } [الفجر/20]، قال الله سبحانه وتعالى: { وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } [العاديات/8]، ومن عوائق المكذبين الاغترار بالعلم لقوله تبارك وتعالى:
{ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ } [القلم/47]، بعض الناس يغتر بما عنده من علم، وانظروا الآن الناس مِن مَن حازوا على مناصب عُليا أو يشار إليهم بالبنان في بعض حقول العلم التجريبي، كيف يغتر بثناء الناس، وبوضعه الاجتماعي، وبمركزه، يغره ذلك عن الإستجابة لله تبارك وتعالى كما هو شأن الغرب الآن، قال الله جل وعلا: { فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ } [غافر/83]

فمن عوائق المكذبين الاغترار بالعلم، وبطبيعة الحال نفى الله عز وجل علم الغيب عن المكذبين فإنه لو حصل لهم علم الغيب دون خبر الرسل لأمكن أن يُعذروا، ولكنهم كان لهم عذر في أمرين الآيات تقول أن العذر في شيئين الأول إن النبي يأخذ منهم مالاً، الأمر الثاني إنهم عندهم علم الغيب، طالما هذا ولا ذاك عندهم، فهذا يجعلهم غير معذورين أمام الله تبارك وتعالى، قال الله جل وعلا في ختام هذه السورة المباركة:{ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50)} [القلم]

قلنا هذه الآيات بتقسيم سورة القلم إلى مقاطع، قلنا أول ستة عشر آية كانوا في مكة، ثم قصة أصحاب الجنة نزلت بالمدينة، ثم باقي الآيات التي تدارسناها، نزلت أيضا بمكة، ثم هاتين الآيتين نزلتَ بالمدينة، { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48)}[القلم]

{ فَاصْبِرْ}؛ هنا الفاء الفصيحة، أي إذا كانت أحوالهم كذلك فاصبر، و هنا { لِحُكْمِ رَبِّكَ} أي على حكم ربك، والحكم هنا يشمل أحكام الله الكونية، فكل ما يحدث في الكون من الأمور بتقدير الله تبارك وتعالى، إن كان خيراً علينا بالشكر وإن كان شراً فعلينا بالصبر.

وأما الحكم الشرعي الذي هو أحكام الشريعة، فأمرنا الله تبارك وتعالى أن نصبر عليها في الإمتثال لأوامر الله، والابتعاد عن نواهي الله تبارك وتعالى، فينبغي أن نصبر على أمرين الصبر، على الأحكام الكونية، والصبر على الأحكام الشرعية، الصبر على الابتلاءات، والصبر على أداء الواجبات والابتعاد عن النواهي، لذلك الصبر، يكون صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، هذا يكون صبر على الحكم الشرعي، وصبر على الابتلاءات، يكون هذا صبر على الحكم الكوني.

{ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ }[القلم/48]

أي يونس عليه السلام سُمّيّ بصاحب الحوت لأنه التقمه، ويُسمى في القرءان بذي النون أي صاحب الحوت { وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا }[الأنبياء/87]، وسماه الله عز وجل باسمه الصريح {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ}[يونس/139]، وهذا من باب التنويع في الأسلوب، وفي كلٍ إشارة إلى معنى متناسق مع السورة التي ذكر فيها اسم نبي الله يونس سواء صاحب الحوت أو ذا النون أو يونس عليه السلام

{وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ }[القلم/48]

{مَكْظُومٌ} أي مغموم، معنى الآيات لا تكن كصاحب الحوت حين نادى وهو مكظوم، اصبر ولا تكن مثله، فإنه تعجل الأمر لما استبطأ إيمان قومه، وإذا بيونس عليه السلام يخبرهم أن العذاب سينزل بهم، في مدة ثلاثة أيام ثم خرج مغاضبا فركِب البحر، ولمّا ماجت به أمواج هذا البحر واقترع أصحاب السفينة فوقع السهم عليه، فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت، فإذا به يسبح الله عز وجل، ويذكره، ويستغيث به في بطن الحوت، قال الله جل وعلا:{ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ(143)لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144)}[الصافات]، هنا الآية قريبة من الآيات التي ذكر فيها شأن قصة التقام الحوت لنبي الله يونس، في سورة الصافات، هنا ربنا تبارك وتعالى يقول:

{ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ } [القلم/49]

أي لولا رحمة ربه لكان نزل به العذاب من الله تبارك وتعالى، نعمة من ربه {لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ} لطرح في العراء، في الأرض القفر المهلكة، وهو مذموم بمغاضبته وفراره من قومه، قصة نبي الله يونس عليه السلام، التي خُتِمت هنا بشأن اجتباء الله له، أن الله عز وجل اختاره بعد أن وفقه للتوبة وقبلها منه، فجعله من الصالحين.

الوقفات

❖ الأمر الأول

أولا وجوب الصبر على الأذى في الدعوةن وعلى تكذيب أولئك المكذبين، يجب أن نصبر. الأمر الثاني وجوب الصبر على القيام بأعباء الدعوة، يعني نصبر على الأذى، ونصبر في أداء ما أوجبه الله علينا من البيان.{ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ } [آل عمران/187]، { وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ } [العصر/3] .

❖ الأمر الثاني

الأمر الثاني يجب الصبر على القيام بأعباء الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، فإن طريق الدعوة محفوف بالمشاق، وعلى ذلك فعلى العبد أن يكون راضيًا بتقدير الله تبارك وتعالى، ففي شأن الأحكام الكونية كما بينّا العبد عليه أن يصبر ويرضى، وفي شأن الأحكام الشرعية على العبد أن يمتثل لأمر الله عز وجل و يبتعد عن ما نهى الله عز وجل عنه وأمرنا بتركه.

هنا بلا شك إشارة آخرى في الآيات أن القدوة ينبغي أن تكون بالأنبياء{ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ } [الأنعام/90]، وهذه الآيات بينت أمراً مهمًا في الإيمان بالرسل، وهو أمر التفاضل بين الأنبياء، الله عز وجل أمر نبيه بالقدوة بأولي العزم من الرسل، ونهاه عن القدوة بذي النون، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر قال "لا تفاضلوا بين أنبياء الله ورسله"،[لم يتم التعرف على التخريج بهذا النص] وخصّ يونس عليه السلام خاصة وقال "لا تفضلوني على يونس بن متى"[الراوي: المحدث:الزيلعي - المصدر:تخريج الكشاف- الصفحة أو الرقم : 264/1 خلاصة حكم المحدث:غريب جدا]،

القرءان ذكر هذا بقوله تبارك وتعالى :{وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ}، ولكن الآية الكريمة:{تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ } [البقرة/253]، هناك تفاضل بينهم لكن هذا لا يقلل من شأنهم عندنا فهم صفوة خلق الله تبارك وتعالى الذين اصطفاهم الله عز وجل لنبوته ولرسالته.

من الإشارات بالآيات أنه يجوز أن نلقب بعض الناس بما يلابسونه، إذا كان هذا الإنسان لا يكره هذا الوصف، كما سمى الله عز وجل ولقب يونس بصاحب الحوت.

الآيات الخاصة بقصة يونس عليه السلام تعطينا من الفوائد الإيمانية، أول شي لاحظوا إن ربنا سبحانه وتعالى قال في شأنه:{ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ }[القلم/48]، {أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل/62].

{ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } [النمل/62]، يونس قال:{ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ } [الأنبياء/87]

وصارت دعوة لفك الكرب، تفريج كربات الناس بهذه الدعوة، لمّا كان يونس في هذا الكرب علّم الناس بعد ذلك، قدوة لكل مكروب، أن يستغيث بالله تبارك وتعالى، أن يستغيث لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

فمن الأدب أن نراعي هذه الأوقات، لمّا ينزل بالإنسان هم، وغم، وكرب، لا يرفع حاجته إلا الله الصمد، الذي يقضي حوائج الناس، والذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، ويكشف وحده السوء، هنا درس مهم آخر، وهو متعلق بمقصد السورة، وأنا قلت لكم أن لو أردنا أن نلخص سورة القلم ننظر لأولها وأخرها، سنجد المفتاح في كلمة نعمة ربك:{ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [القلم/2]، أخر السورة {لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ} [القلم/49].

كأن السورة تتحدث عن قضية مهمة، أنه لما جاءت قصة أصحاب الجنة تحدثت عن هذا المعنى أيضا، أنهم نسبوا الأمر لأنفسهم { وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ } [القلم/25]

وظنوا أنهم هم المالكين الحقيقيين، لست المالك ولست ملكاً ولست مليكا، الله وحده المالك الملك المليك، فإذن ينبغي أن تنسب الأمر إلى الله تبارك وتعالى ف{ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ } [النساء/79]، {أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ} [القلم/49] ، وفي أول السورة {مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ }[القلم/2].

سورة القلم تقول لنا هذا المعنى، تلخص لنا هذه القضية، نسبة الأمر إلى الله تبارك وتعالى، وضرب المثال بقصة أصحاب الجنة للتأكيد على هذا الأمر{ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ } [القلم/49].

ثم الله يصطفي من يشاء، ونحن دائما عندما نأتي على آيات الإجتباء أو الإصطفاء، نقول القاعدة من صَفَّى صُفِّي له، المُجتبى المُصطفى عند الله تبارك وتعالى هو، أكثر الناس تصفية لنفسه من الآفات، {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[القلم/50]؛ أي من جملتهم، وهذا التعبير أدل على إثبات الصلاح له مما لو قيل "فجعله صالحا "، لأن هذا التعبير يدل على صلاح في النفس، وجعله من الصالحين، فإنه دل على أنه صالح في نفسه، وعلى مصاحبته لأهل الصلاح، وعلى مشاركتهم في المصير {فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}.

من فوائدها بلا شك، أن من تاب مما يؤاخذ العبد عليه لا يلحقه ذنب، {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ}، ولا يلحقه عقاب، ولا يجوز ذمه، ولا لومه، وهذا رد على من يقول في شأن معاتبة آدم وموسى عليهم السلام، ومحاجاة موسى لآدم، من تاب مما يؤاخذ العبد عليه لا يلحقه ذنب، ولا عقاب ولا يجوز ذمة ولا لومة.
ختمت السورة الكريمة بقول الله تبارك وتعالى:{ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51)وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (52)} [القلم]

{وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا}؛ أي يقربوا، {لَيُزْلِقُونَكَ}؛ أي ليزيلونك عن مكانك، {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ }؛ أي يهلكونك بإصابة العين، لشدة حنقهم، وشدة حسدهم لك

{ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ }؛ أي حين سمعوا القرءان، وقد حفظ الله نبيه من كيدهم، وكانوا في الجاهلية يعرفون العين، حتى الفراء قال: "كان أحدهم إذا أراد أن يعتان المال -أي يصيبه بالعين- تجوع ثلاثا، ثم يتعرض لذلك المال، ثم يقول تالله ما لا أكثر ولا أحسن" تعلمون من يريد أن تصيب العين، تصيبه في مقتل هو كذلك، يقوم في ثلاثة أيام بتجويع نفسه، وبعد ذلك يقول، ياه أموال فلان كثير جدا جدا، فيقول تالله ما لا أكثر ولا أحسن ،يعني ما رأيت أكثر ولا أحسن، فتسقط منه الأباعر، فإذا بهذا المال يهلك بسبب ذلك.
والنبيﷺ قال فيما رواه مسلم قال "العين الحق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين" [رواه مسلم] يعني من شدة تأثير ذلك، وحذر النبي صلى ﷺ من خطر ذلك، ولكن عندنا من التحصينات الشرعية ما يجعلنا لا نأبه بمثل ذلك، فيقولون هؤلاء الكفار حسدا

للنبي ﷺ ومقتا وتنفيرا فيقولون {إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} لقرأته القرءان، يعنون أن ما سمعوه قول مجنون، وهذا مطابق لما جاء في أول السورة أيضا {مَآ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [القلم/2].

وأكدت السورة في خاتمتها، أن الذي يقول مثل هذا، والذي أتى بمثل هذا القرءان، لا يمكن أن يُدعى بالجنون أبدا لعلو منزلته، وحسن خلقه، وبداعة ما جاء به، لكنه الحسد، لكنه أثر آفات النفوس، فبيّن ربنا تبارك وتعالى لنبيه السبب في كلامهم ذلك، حتى يُطمأنهُ ويبين له حقيقة أنفس أولئك.
{وَمَا هُوَ} أي القرآن، {إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} أي للجن والإنس، وختمت السورة بمثل ما بدأت به من تنزيهه عما رماه الكفار به من الجنون.

وهذه الآيات بينت شدة حسد الكفار للنبي ﷺ، وللمؤمنين وينبغي على أهل الإيمان، وعلى أهل الدعوة إلى الله عز وجل وأهل العلم أن يأخذوا حذرهم{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} [البقرة/109]

والأمر الثاني أثبتت العين، وأنها سبب قد يؤثر في المحسود.

❖ الأمر الثالث

الأمر الثالث أنهم لم يصيبوا النبي ﷺ بالعين، وإن حسدوه لمجيء {وَإِن يَكَادُ} فالله عصمه، والله حفظه، الله عز وجل حفظ نبيه، والله تبارك وتعالى يدافع عن الذين آمنوا.

لا تضعوا في بالكم هذه المعاني كثيراً؛ لأن هناك بعض الناس يصيبهم هلع من الكلام عن العين والحسد وغيره، لا تفكروا فيه كثيرا وإنما اتخذوا الأسباب الوقائية منه، وبعد ذلك لا يستطيعوا أن يصنعوا شيئا، طالما أنت محصن طالما أنتِ محصنة من هذا .

وكان النبي ﷺ لا يتعوذ بعد نزول المعوذتين إلا بهما، فنكثر من التعوذ بهما وفيها الإشارة إلى شر الحسد{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} [الفلق/5]، العين حقٌ، والله عز وجل ابتلى بها الناس، حتى يكونوا أكثر لجأً له، وأكثر تحرزاً من ذلك، ولأنه لا يعصمهم من ذلك إلا هو سبحانه وتعالى، فيدفع عنهم{ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ } [البقرة/257]، { إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ } [الأعراف/196].

هذه السورة العظيمة الكريمة تدارسناها على مدى هذه الحلقات الثلاث، وفيها من المعاني ما ينبغي أن نوجزه في كلمة يسيرة في ختام مدارستها.

هذه السورة بينت لنا أهمية العلم، وقلنا سورة القلم جاءت بعد سورة العلق، من حيث ترتيب السور، وقلنا سورة العلق جاءت باقرأ، وسورة القلم جاءت باكتب، فبينت لنا أهمية العلم، هذه السورة بينت لنا أهمية نسبة هذا العلم إلى الله تبارك وتعالى، وعدم الاغترار بأيٍ من نعم الله التي ينعم الله بها على العباد.

هذه السورة الكريمة علّمتنا الجود علّمتنا الإحسان، الإنسان ينبغي أن يجود ليكون له حظ من اسم الله الجواد، ويكرم ويحسن ليكون له النصيب من اسم الله الكريم الأكرم المحسن، علمتنا هذا المعنى وألحت عليه لاسيما في قصة أصحاب الجنة.

تعلّمنا كيف أن الإنسان منّا ينبغي أن يعامل الله، ولا يعامل الناس، وأن يتاجر مع الله عز وجل، وأن يفهم أن السبيل إلى كثرة الخير يكون بالإكثار من الاحسان، والتفضل، والصدقات، وإيتاء الزكاة.

هذه السورة أتت بأصول الإيمان، وبأركان الإسلام لاسيما، أمر الصلاة، وأمر الزكاة، أمر الصلاة لمّا ذُكر أمر السجود، وأمر الزكاة لمّا ذُكر في قصة أصحاب الجنة.

هذه السورة كان فيها آيات مكية و فيها آيات مدنية، لأن هذا الموضوع موضوع ملح، ويتكرر، ولا ينبغي أن نمل من ترداده، وهي القضية الخاصة بمسألة الإيمان بالقضاء والقدر، مسألة أن الإنسان ينبغي أن يؤمن بالقدر خيره، وشره، حلوه، ومره، وأنه إذا ما أنعم الله عز وجل عليه بنعمة فينبغي أن ينسبها لله تبارك وتعالى{مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍۢ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍۢ فَمِن نَّفْسِكَ }[النساء/79]، فإذا ما أصابته الضراء، فإنه يعلم أن ذلك كان من قبل نفسه.

سورة القلم كان المحور الأساسي فيها يدور حول هذا المعنى، نسبة الأمر إلى الله تبارك وتعالى فهو المتفضل علينا ابتداءً وانتهاءً{ مَآ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ } [القلم/2]

وقوله تبارك وتعالى: { لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ } [القلم/49]

سورة القلم علَّمتنا التحلي بمكارم الأخلاق، فهذه هي سمات الصالحين، وعلّمتنا كيف يكون الإنسان صاحب خلق عظيم، وبينت لنا أصول مكارم الأخلاق، وكذلك رذائلها.

علمتنا أن الثبات على المبدأ القويم ينبغي أن يكون شعار المؤمنين، وإن استوحشوا الطريق، علمتنا أن مَن منع حق الله في المال اذانه الله بالزوال، وأن فضل الصدقة في نماء المال، وبركته معلومة، وعلمتنا أن نعزم على الخير وإن لم نفعله، فإن حُرمنا فعله، لا نُحرم أجر النية والإرادة، علمتنا أنه ما نزل بلاء إلا بذنب، وأنه لا يُرفع إلا بتوبة، علّمتنا الإهتمام الشديد بأمر النية وإخلاص العمل، قل لمن لا يخلص لا تتعنى، علمتنا أن نلح على الله بسؤال الهداية والتوفيق، وإنها منّة عظيمة من الله تبارك وتعالى، علّمتنا أن نكون على يقين، أنه لا ينفذ إلا أمر الله تبارك وتعالى.

سورة القلم بجانب سورة العلق تأصل للأصل الأول من الأصول الثلاثة، العلم والعمل والدعوة إلى الله تبارك وتعالى، سورة القلم بجانب سورة العلق تأصل للأصل الأول، أصل العلم وأصل اليقين، وليس من بعيد أن تأتي بعد ذلك سورة الحاقة، وتُختم بكلام عن اليقين، فانظروا هذا في الدرس القادم، ونحن نتأمل سورة الحاقة.

أقول هذا القول واستغفر الله لي ولكم،

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك نشهد أن لا إله إلا انت نستغفرك ونتوب إليك اللهم صل على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

تم بحمد الله
الشيخ هاني حلمـــــــــــــي